

بقلم

الأديب البليغ مصطفى لطفي المنفلوطي

المتوفى سنة (١٣٤٣هـ) رحمه الله

مكتبة الهداية

طَبْعَة دَار الهِـدَاية الأُولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

مكتبة الهداية

ص.ب: ٥٣٩٥ - ١٣

بَيروت - لبـنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ذهب فلانٌ إلى أُوروبّا ومَا نُنْكِرُ مِنْ أَمْرِهِ شيئاً، فلبِثَ فيها بضع سنينَ، ثُمَّ عاد ومَا بقي مما كُنّا نَعْرِفُهُ منهُ شيءٌ.

ذهب بوجهٍ كوجهِ العَذْراءِ ليلةَ عُرْسِها، وعاد بوجهٍ كَوَجْهِ الصَّخْرةِ المَلْساءِ تحتَ اللَّيْلةِ المَاطِرَةِ.

وَذَهَب بِقَلْبٍ نَقيٍّ طَاهِرٍ يَأْنَسُ بالعَفْوِ ويستريحُ إلى العُذْرِ، وعادَ بقلبٍ مُلَفَّفٍ مَدْخولٍ لا يُفارِقُهُ السَّخَطُ على الأَرْضِ وساكِنها، والنِّقْمَةُ على السماءِ وخالِقها.

وذهب بنفسٍ غَضَّةٍ خاشعةٍ تَرى كُلَّ نَفْسٍ فَوْقَها، وعادَ بنفسٍ ذَهَّابةٍ نَزَّاعةٍ لا تَرى شيئاً فَوْقَها، ولا تُلْقي نَظرةً واحدةً على ما تحتَها.

وذهب بــرأسٍ مَمْلوءٍ حِكْمـةً وَرَأيـاً، وعـادَ بِرأسِ التِّمثالِ المَثْقوب لا يَمْلَؤُهُ إلاَّ الهواءُ المُتَرَدِّدُ.

وذهب وَمَا على وَجْهِ الأَرْضِ أحبُّ إليـهِ مِنْ دِينهِ وَوَطَنِهِ، وعـادَ وَمَا على وَجْهِهـا أَصْغَرُ في عينـهِ منهما!.

وكنتُ أرى أَنَّ هذه الصُّوَرَ الغَرِيبةَ الّتي يَتَراءىٰ فيهـا هؤلاءِ الضُّعفاءُ مِنَ الفِتْيـانِ العائـدينَ من تلكَ الـدِّيَار إلى أَوْطـانِهِمْ إنّما هيَ أَصْبـاغٌ مُفْـرَغَـةٌ على أَجْسـامِهِم إفْـرَاغـاً لا تَلْبَثُ أَنْ تَـطْلُعَ عليهـا شَمْسُ المَشْرقِ فتَمْحُوها، كَأَنْ لم تكُن، وأَنَّ مكان المدنيةِ الغـربيّة من نُفـوسِهم مَكانُ الـوجهِ من المـرآةِ؛ إذا انْحَرَفَ عَنْها زالَ خيالُه مِنها.

فلم أَشَأْ أَنْ أُفارِقَ ذلك الصَّديقِ، وَلَبِسْتُهُ على عِـلاَّتهِ وفـاءً بِعَهْدِهِ السَّـابقِ، وَرَجـاءً لِغَـدِهِ المُنْتَـظَرِ مُحْتمِلاً في سبيلِ ذلك مِنْ حُمْقهِ وَوَسْوَاسهِ وفَسَـادِ

تَصَوُّراتِهِ، وَغَرَابَةِ أَطْوارِهِ، ما لا طَاقَةَ لِمِثْلي بِاحْتِمَالِ مِثْلِه.

حتّى جاءَني ذاتَ ليلةٍ بداهِيَةِ الدَّوَاهي، وَمُصِيبَةِ المَصائِبِ، فكانَتْ آخِرَ عَهْدي به!!.

دخلتُ عليهِ فرأَيتُه واجِماً مُكْتَئِباً، فَحَيَّيْتُهُ، فَأَوْمَأَ إليَّ بالتحيةِ إيماءً فسأَلتُه: ما بالُه؟.

فقالَ: ما زِلْتُ مُنْذُ الليلةِ مِنْ هٰذهِ المَرْأَةِ في عَنَاءٍ لا أَعْرِفُ السَّبيلَ إلى الخلاصِ منه، ولا أَدْري مَصِيرَ أَمْري فيهِ.

قلتُ: وأَيُّ امرأَةٍ تريدُ؟.

قالَ: تِلْكَ الّتي يُسَمِّيها النَّاسُ زَوْجَتي، وأُسَمِّيها الصَّخْرَةَ العاتِيَةَ الْقَائِمَةَ في طريقِ مطالبي وآمالي.

قلتُ: إِنَّكَ كثيرُ الآمالِ يا سيّدي، فعن أَيِّ آمالِكَ تُحَدِّثُ؟.

قال: ليسَ لي في الحياةِ إلاَّ أَمَلٌ واحِدٌ، وهو أَنْ أُغْمِضَ عَيْني ثُمَّ أَفْتَحُهـا فلا أرى بُـرْقُعاً[1] على وَجْهِ امْرَأةٍ في هذا البَلَدِ.

قُلْتُ: ذَلِكَ ما لا تَمْلِكُهُ، ولا رَأْيَ لكَ فيهِ.

قال: إنَّ كَثِيراً مِنَ النّاس يَرَوْنَ في الحِجَـابِ رَأْيـي، وَيَتَمنَّوْنَ في أَمْرهِ ما أَتَمنَّى، ولا يَحُولُ بينَهم وَبينَ تَمْزيقهِ عن وُجوهِ نسائِهمْ وإبرازِهِنَّ إلى الرِّجالِ يُجالِسْنَهم كما يَجْلِسُ بَعْضُهُنَّ إلى بعضٍ إلاَّ العَجْزُ والضَّعْفُ والهَيْبَـةُ الّتي لا تَـزالُ تُلِمُّ بِنَفْسِ الشـرقي كُلَّما حاوَلَ الإقْدامُ على أَمْرٍ جَدِيدٍ، فرأَيْتُ أَنْ أَكونَ أَوَّلَ هادمٍ لهذا البناءِ العاديِّ[2] القَديمِ الّذي وقفَ سَدَّاً دونَ سعادةِ الأُمَّةِ وارْتِقَائِها دَهْراً طويلاً، وأَنْ يَتِمَّ على يَدِي مِنْ ذلك ما لم يَتِمَّ على يَدِ أحدٍ غَيْري من

---

(١) هو الغطاء الذي تستر المرأةُ به وَجْهَها.

(٢) العادي: كالقديم، نِسبةٌ إلى قبيلة عاد.

دُعاةِ الحرية وأَشْيَاعِها، فَعَرَضْتُ الأمْرَ على زَوْجَتي فَأَكْبَرَتْهُ وَأَعْظَمَتْهُ وَخُيِّلَ إِلَيْهـا أَنّني جِئْتُها بِنَكَبـةٍ من نَكَباتِ الدَّهْـرِ أَوْ رَزِيئَةٍ من رَزَايَـاه، وزَعَمَتْ أَنّها إنْ بَـرَزَتْ إلى الرِّجـالِ فإنَّهـا لا تستطيـعُ أَنْ تَبْـرُزَ إلى النِّساءِ مِنْ بعدِ ذلكَ حياءً مِنْهُنَّ وخَجَـلاً، ولا خَجَلَ هناكَ وَلا حَياء ولكنّهُ الموتُ والجمـودُ والذُّل الّـذي ضَرَبَهُ اللَّهُ على هٰـؤُلِيَاءِ النِّسـاءِ في هذا البَلَدِ[١] أَنْ يَعِشْنَ في قُبـورٍ مُظْلِمَـةٍ مِنْ خُـدورِهِنَّ حَتَّى يَـأْتِيَهُنَّ الموتُ فَيَنْتَقِلْنَ مِنْ مَقْبرةِ الدُّنْيَا إلى مَقْبرةِ الأُخْرى، فَلَا بُدَّ لي أَنْ أَبْلُغَ أُمْنِيَتي، وَأَنْ أُعالِجَ هـذا الـرَّأْسَ الْقَاسِيَ المُتَحَجِّرَ عِلاجاً يَنْتَهي بِـإِحْدىٰ الحُسْنَيَيْنِ، إمَا بِكَسْرِهِ أَوْ بِشِفائِهِ!.

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِن حَديثِهِ ما مَلأَ نَفْسي هَمّاً وَحُزْناً، ونظرتُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ الرَّاحمِ الرَّاثي، وَقُلْتُ له: أَعـالِمٌ أَنْتَ أَيُّها الصَّدِيقُ ما تَقولُ.

---

(٢) يعني مصر، كبرت كلمةً هو قائلها.

قال: نعم، أَقولُ الحقيقةَ الّتي أَعْتَقِدُها وَأَدِينُ نَفْسِي بها وَاقِعَةً من نَفْسِكَ ونُفُوسِ النَّاسِ جَمِيعاً حَيْثُ وَقَعَتْ.

قلت: هل تَأْذَنُ لِي أَنْ أقول لك إِنَّكَ عِشْتَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ في دِيَارِ قَوْمٍ لا حِجَابَ بَيْنَ رِجالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، فَهَلْ تَذْكُرُ أَنَّ نَفْسَكَ حَدَّثَتْكَ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ وَأَنْتَ فِيهِمْ بالطَّمَعِ في شَيْءٍ مِمّا لا تَمْلِكُ يمينُكَ فَنِلْتَ ما تَطْمَعُ فيهِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرَ مالِكُهُ؟.

قال: رُبّما وَقَعَ لي شَيْءٌ من ذٰلِكَ فَماذا تريد؟.

أُريدُ أَنْ أَقولَ لكَ: إِنّي أَخافُ على عِرْضِكَ أَنْ يُلِمَّ به مِنَ الرِّجالِ ما أَلَمَّ بِأَعْرَاضِ الرِّجَالِ مِنْكَ!.

قال: إِنَّ المرأة الشَّريفةَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَعِيشَ بينَ الرِّجالِ مِنْ شَرَفِها في حِصْنٍ حَصينٍ لا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ الأَعناق.

فتَدَاخَلَني ما لم أَمْلِكْ نَفْسي مَعَه وقُلْتُ:

تلكَ هي الخُدعَةُ الّتي يَخْدَعُكُمْ بها الشَّيْطانُ أَيُّها الضُعَفاءُ، والثُّلْمَةُ الّتي يَعْثُرُ بِهَا في زَوَايا رؤوسِكُمْ فَيَنْحَدِرُ منها إلى عُقولِكُمْ وَمَدَارِكِكُمْ فَيُفْسِدُها عَلَيْكُمْ، فَالشَّرَفُ كَلِمةٌ لا وجود لها إلاّ في قَوَامِيسِ اللُّغَةِ وَمَعَاجِمِها، فإنْ أَرَدْنا أَنْ نفتش عنها في قُلوبِ النَّاسِ وَأَفئِدَتِهِم فإنّا لا نَجِدُها، والنَّفْسُ الإنسَانيةُ كالغديرِ الرَّاكدِ لا يزالُ صافِياً رائِقاً حتى يَسْقُطَ فيه حَجَرٌ، فإذا هو مُسْتَنْقَعٌ كَدِرٌ.

وَالْعِفَّةُ لونٌ من أَلْوانِ النَّفسِ، لا جوهرٌ من جَوَاهِرِها، وقَلَّما تَثْبُتُ الأَلوانُ على أَشِعَّةِ الشَّمْسِ المُتَساقِطَةِ.

قالَ: أتنكرُ وُجودَ العِفَّةِ بين الناسِ؟.

قلتُ: لا أُنْكِرُها لِأَنّي أَعْلَمُ أَنَّها مَوْجُودةٌ بينَ

البُلْهِ والضُّعَفاءِ والمُتَعَمِّلين، ولـٰكِنّي أُنْكِرُ وُجـودَهـا عِنْـدَ الرَّجُـلِ الْقـادِرِ المُخْتَلِبِ، والْمَـرْأَةِ الحَـاذِقَـةِ المُتَرَفِّقَةِ إِذَا سَقَطَ مِنْ بينِهما الحِجَـابُ وَخَـلا وَجْهُ كُلٍّ مِنْهُما لِصَاحِبِهِ!.

في أَيِّ جـوٍّ مِنْ أَجْواءِ هٰـذا البَلَدِ تُريـدونَ أَنْ تَبْرُزَ نِساؤُكُمْ لِرِجَالِكم؟!.

أَفي جَـوِّ المُتَعلِّمينَ وفيهِمْ مَنْ سُئِل مَـرَّةً: لِمَ لَمْ يَتَزَوَّجُ؟ أجَابَ: نساءُ الأُمَّةِ جميعاً نِسائِي!!!.

أَمْ في جَوِّ الطلبة وَفِيهِمْ مَنْ يَتوارَىٰ عَنْ أَعْيُنِ خِلانه وأترابه حَياءً وَخَجلاً إن خلت مِحْفَظَته يوماً من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو أقفرت من رسائل الحب والغرام؟!.

أَمْ في جَوِّ الرَّعاعِ وَالْغَوْغاءِ وَكَثِيرٌ مِنْهُم يَدْخُلُ البيتَ خادِماً ذَلِيلاً، ويَخْرُجُ منه صِهْراً كَريماً؟!.

وَبَعْدُ:

فَما هٰذا الْوَلَعُ بقصّةِ المرأةِ، والتَّمَطُّقُ[1] بحدِيثها، والقِيامُ والقُعودُ بِأَمْرِها، وَأَمْرِ حِجَابِهَا وَسُفورِها، وحُرِّيَّتها وَأَسْرِها؟.

كَأَنَّما قَدْ قُمْتُمْ بِكُلِّ حَقٍّ واجبٍ لِلأُمّةِ عَلَيْكُمْ في أَنْفُسِكم فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُفيضوا مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ على غَيْرِكم!.

هَذِّبُوا رِجالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُهَذِّبُوا نِساءَكُم، فإِن عَجَزْتُمْ عَنْ الرِّجالِ فَأَنْتُمْ عَنِ النِّساءِ أَعْجَزُ.

أَبْوَابُ الفَخْرِ أَمامَكُمْ كَثِيرةٌ، فَاطْرُقُوا أَيَّها شِئْتُم، وَدَعُوا هٰذا البابَ مُوْصَداً فإِنَّكُمْ إِنْ فَتَحْتُمُوهُ فَتَحْتُمْ على أَنْفُسِكم وَيْلاً عَظِيماً، وَشَقاءً طَويلاً.

---

(١) تَمَطَّق: صوَّتَ بلسانِهِ عند استطابةِ الطعام.

أَروني رَجُلًا واحِداً مِنْكم يستطيع أَنْ يَزْعَمَ في نفسهِ أَنَّهُ يَمْتَلِكُ هَواهُ بَيْنَ يَدَيْ امرأَةٍ يَرْضَاها فَأُصَدِّقُ أَنَّ امْرَأَةً تستطيعُ أَنْ تَمْتَلِكَ هَواهـا بَيْنَ يَدَيْ رَجُـلٍ ترضاهُ؟!.

إِنَّكُمْ تكلفـونَ المَـرْأَةَ مـا تَعْلَمُـونَ أَنَّكُـمْ تَعْجَزونَ عَنْهُ، وتَطْلُبونَ عِنْدَها ما لا تعرفـونه عِنْـدَ أَنْفُسِكُمْ.

فَأَنْتُمْ تُخاطِرونَ بها في مَعْرَكَةِ الحياةِ مُخاطَرةً لا تَعْلَمون: أَتَرْبحونَها مِنْ بَعْدِها أَمْ تَخْسَرونَها؟ وما أَحْسَبُكُمْ إلَّا خاسرين.

مـا شَكَتِ المَـرْأَة إِلَيْكُمْ ظُلْمـاً، ولا تقـدمت إِلَيكم في أَنْ تَحُلُّوا قَيْدَهَا، وَتُطْلِقُوها مِنْ أَسْرِها، فما دُخـولُكُمْ بينَها وبينَ نفسِهـا؟. ومـا تَمَضُّغُكُمْ ليلَكُمْ وَنَهارَكُمْ بِقَصَصِها وَأَحاديثها!؟.

إِنّهـا لا تَشكـو إلَّا فُضـولَكُمْ وإِسْفَـافَكُمْ،

ومضايقتكم لها، وَوقُوفَكُمْ في وَجْهِها حيثُما سارَتْ، وأَيْنما حلَّتْ، حَتّى ضاقَ بها وَجْهُ آلفضـاء فلم تَجِدْ لها سَبِيلاً إلَّا أَنْ تسجُنَ نَفْسَها بِنَفْسِها في بيتِها فَوْقَ ما سَجَنَها أهلُها، فَأَوْصَدَتْ مِن دونِها بابَها، وأَسْبَلَتْ أَستارَها، تَبَرُّماً بِكُمْ، وفِراراً مِنْ فُضولِكم، فَوَاعجباً لكم تَسْجُنُونَها بِأَيْدِيكم ثُمَّ تَقِفون على بابِ سِجْنهـا تَبْكونَها وَتَنْدُبُونَ شَقَاءَها!!.

إنَّكم لا تَرْثونَ لهـا بَلْ تَـرْثُونَ لِأَنْفُسِكُمْ، ولا تَبْكُونَ عليها بل على أيام قَضَيْتُموها في ديارٍ يَسيلُ جَوُّها تَبَرُّجاً وسفوراً، وَيَتَدَفَّقُ حُـرِّيَّةً واسْتِهْتـاراً[1]، وَتَـوَدُّونَ بِجَدْعِ الأَنْفِ لـو ظَفِرْتُمْ هنـا بهـذا الْعَيْشِ الّذي خلَّفْتُموهُ هناك!.

لقد كُنَّا وكانتِ العِفَّةُ في سِقاءٍ[2] من الحِجَابِ

---

(١) استهتر: اتبع هواه فلا يُبالي بما يفعل.
(٢) السِّقاء: وعاءُ الماءِ من جلد السَّخلة.

مَوْكُوءٍ[1]، فما زِلْتُم بهِ تَثْقُبُـونَ في جَوَانِبـهِ كُلَّ يَـوْم ثُقْبـاً، والعِفَّةُ تَتَسَلَّلُ منـه قَطْرَةً قَـطْرَةً حتّى تَقَبَّضَ[2] وَتَضـاءَلَ، ثُمَّ لَمْ يَكْفِكُمْ ذلك مِنْـهُ حَتّى جِئْتُم الْيَوْمَ تُـرِيـدُونَ أَنْ تَحُلُّوا وِكـاءَهُ حَتّى لا تَبْقَى فيـه قَـطْرةٌ واحِدَةٌ.

عاشَتِ المرأةُ المصريةُ حِقْبَةً مِنْ دَهْرِهَا هادئةً مُطْمَئِنَّةً في بَيْتِها، رَاضِيَةً عَنْ نَفْسِهـا وعَنْ عَيْشِها، ترى السَّعادَةَ كُلَّ السَّعادَةِ في واجبٍ تؤديـه لِنَفْسِها، أَوْ وَقْفَةٍ تَقِفُها بين يَدَيْ رَبِّها، أَوْ عَطْفَةٍ تَعْـطِفُها على وَلَـدِها، أَوْ جَلْسَـةٍ تَجْلِسُها إلى جـارَتِها فَتَبُثُّهـا ذاتَ نَفْسِهـا، وتَسْتَبِثُّهَا سَرِيرةَ قَلْبِهـا، وترى الشَّـرَفَ كُـلَّ الشَّرَفِ في خُضوعِها لأَبِيها، وَائْتِمَارِهَا بِأَمْرِ زَوْجِها، وَنُزُولِها عِنْدَ رِضاهما.

---

(١) أَوكَى القِرْبَةَ: شدّ رأسَها بالوكاءِ، والوكاءُ: الرِّباط.

(٢) تقبّض: يبس.

وكـانَتْ تَفْهَمُ معنى الحب وَتَجْهَـلُ معـنى الغرام، فَتُحِبُّ زوجَها لأَنَّهُ زوجُها، كما تُحِبُّ وَلَدَها لأَنَّهُ ولدُها، فإِنْ رَأَىٰ النِّساءُ غَيْرُها أَنَّ الحُبَّ أَساسُ الزواجِ، رَأَتْه هي أَنَّ الزَّواجَ أَساسُ الحُبِّ، فَقُلْتُم لها: إِنَّ هؤلاءِ الّذين يَسْتَبِدُّونَ بِأَمْرِكِ مِنْ أَهْلِكِ لَيْسوا بِأَكْبَرَ مِنْكِ عَقْلاً، وَلا أَفْضَلَ رَأْياً، وَلاَ أَقْدَرَ على النَّظَرِ لَكِ مِنْ نَظَرِكِ لِنَفْسِكِ، فلا حَقَّ لهم في هذا السُّلْطانِ الّذي يَزْعَمُونَه لأِنْفُسِهم عَلَيْكِ، فازْدَرَتْ أَباها، وتمردت على زَوْجِها، وأَصْبَحَ البيتُ الّذي كان بالأَمْسِ عُرْساً مِنْ الأَعراسِ الضاحِكَةِ مَناحةً قائِمةً لا تَهْدَأُ نارُها، ولا يَخْبو أُوارُها.

وقُلْتُمْ لها: لا بُدَّ لكِ أَنْ تَخْتارِي زَوْجَكِ بِنَفْسِكِ حَتَّى لا يَخْدَعَكِ أَهْلُكِ عن سَعادَةِ مستقبلكِ[1] فاخْتارَتْ بِنَفْسِها أَسْوأَ مِمَّا اخْتارَ لها

---

(١) هذا ملحوظ في عرض المسلسلات المتلفَزة، فالحذر... الحذر.

أَهْلُها فلم يَزِدْ عمر سَعادَتِها على يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثُمَّ الشَّقاءُ الطَّويلُ بعدَ ذلك والْعَذابُ الأَليم.

وقلتم لهـا: إِنَّ الحبَّ أَسـاس الـزَّواج، فمـا زالَتْ تقلب عَيْنَيْها في وُجوهِ الرِّجالِ مُصَعِّدَةٍ مُصَوِّبَةً حَتّى شَغَلَها الحُبُّ عن الزَّوَاجِ!.

وقُلْتُمْ لهـا: إِنَّ سعادةَ المَـرْأَةِ في حَيـاتِهـا أَنْ يَكُونَ زوجها عشِيقَها، وما كانَتْ تَعْرِفُ إِلَّا أَنّ الزوجَ غيـرُ العشيقِ، فَأَصْبَحتْ تَـطْلُبُ في كُلِّ يَـوْمٍ زَوْجَاً جَدِيداً يُحْيـي مِنْ لَوْعَةِ الحُبِّ ما أَمَاتَ الْقَدِيمُ. فلا قَدِيماً اسْتَبْقَتْ وَلا جَدِيداً أفادَتْ(١).

وقُلْتُمْ لها: لا بُدَّ لكِ أنْ تَتَعَلَّمي لِتُحْسِني تَرْبِيَةَ وَلَدِكِ والقِيَامَ على شؤونِ بَيْتِـكِ، فتعلَّمت كل شَيْءٍ إلَّا تَرْبِيَةَ وَلَدِها والقِيَامَ على شُؤونِ بَيْتِها!.

وقلتم لهـا: إِنَّـا لا نَتَـزَوَّجُ مِنَ النِّسـاء إلَّا مَنْ

(١) أفاد: بمعنى استفاد.

نُحِبُّهـا وَنَرْضَـاها، وَيُـلائمُ ذَوْقُها ذَوْقَنـا، وشُعورُهـا شُعورَنا، فكانَ لا بُدَّ لَهَا أَنْ تَعْرِفَ مَوَاقِعَ أَهْـوائِكُمْ، وَمَسـارِحَ أَنـظاركم، لتَتَجمَّــلَ لَكُمْ بِمَـا تُحِبُّــونَ، فَرَاجَعَتْ فِهْرِسَ أعمالكم في حياتكم صفحةً صفحةً فَلَمْ تَـرَ فيـهِ غَيْـرَ أَسْمـاءِ الْخَلِيعـاتِ المُسْتَهْتِـرَاتِ، والضَّـاحِكَاتِ الـلاَّعِباتِ، والإعجـابَ بِهِنَّ، والثناءَ على ذَكـائِهنّ وفِطْنَتِهِنَّ، فَتَخَلَّعَتْ واسْتَهْتَـرَتْ لِتَبْلُغَ رِضاكُم، وَتَنْزِلَ عِنْدَ مَحَبَّتِكُمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْكُمْ بِهٰذا الثَّوْبِ الرَّقيقِ الشَّفَّافِ تَعْرِضُ نَفْسَهـا عَلَيْكُمْ عَرْضـاً كما يَعْرِضُ النَّخَّاس أَمَتَهُ في سُوقِ الرَّقيقِ فَأَعْرَضْتُم عنها، وَنَبَوْتُمْ بها.

وَقُلْتُمْ لهـا: إنَّا لا نتـزوج النِّسَاء الْعـاهِرَاتِ، كَأَنَّكم لا تُبالُونَ أَنْ يَكُونَ نِسَاءُ الأُمَّةِ جَميعاً ساقِطاتٍ إِذَا سَلِمَتْ لَكُم نسـاؤُكُمْ، فَرَجَعَتْ أَدْرَاجَهَـا خَائِبَـةً مُنْكَسِرَةً، وَقَدْ أَباها الخليعُ، وتَرَفَّع عنها المُحْتَشِمُ، فَلَمْ تَجِدْ بَيْنَ يَدَيْها غَيْرَ بابِ السُّقوطِ فَسَقَطَتْ..

وهكذا انتشرتِ الـرِّيبـةُ في نُفـوسِ الأُمَّـةِ جَميعِهـا، وَتَمَشَّتِ الظُّنُـونُ بَيْنَ رِجَالِهـا ونِسَـائِهـا، فَتَحاجَزَ الْفَرِيقَانِ، وَأَظْلَمَ الْفَضاءُ بينَهما، وَأَصْبَحَتْ البيوت كالأديرة لا يرىٰ فيها الرَّائِي إلَّا رِجالًا مُتَرَهِّبين وَنِسَاءً عانِساتٍ.

ذٰلـك بكاؤكم على المَـرْأَةِ أيها الـرَّاحِمُـونَ، وهذا رِثاؤُكُمْ لَهَا، وَعَطْفُكُمْ عَلَيْهَا!.

نَحْنُ نعلم كما تعلمونَ أَنَّ الْمَـرأة في حاجـةٍ إلىٰ العلم فَلْيُهَذِّبها أَبُوها أَوْ أَخُوها، فَالتَّهْذِيبُ أَنْفَـعُ لَهَـا منَ الْعِلْمِ(١)، وإلى اخْتِيَـارِ الـزَّوجِ الْعـادِلِ الرَّحيمِ، فَلْيُحْسِنِ الآباءُ الاختيارَ لبناتهم وَلْيُجْمِلِ الأَزْوَاجُ عِشـرة نِسائِهِمْ، وإِلىٰ النُّورِ والهـواء تبـرزُ إليهمـا، تتمتعُ فيهِمـا بنعمـةِ الحيـاةِ، فَلْيَـأْذَنْ لهـا

---

(١) فمهذَّبة غير متعلِّمة أنفع لنفسها وللأُمة من مُتعلِّمة غير مُهذَّبة، والجمع بين العلم والتهذيب أَوْلى.

أَوْلياؤُها بذلِكَ، وَلْيُرَافِقْها رَفِيقٌ مِنْهُم في غَدَوَاتِهَا وَرَوْحَاتِهَا كما يُرافِقُ الشَّاة رَاعِيها خَوْفاً عليها من الذِّئاب، فإنْ عَجَزْنا عن أَنْ نَأْخُذَ الآباءَ والإِخوةَ والأَزْواجَ بذلك، فَلْنَنْفُضْ أَيْدِينا مِنَ الأُمَّةِ جَمِيعِها: نِسَائِها وَرِجالِها. **فَلَيْسَتِ الْمَرْأَةُ بِأَقْدَرَ عَلَىٰ إِصْلاحِ نَفْسِها مِنَ الرَّجُلِ على إِصْلاحِها.**

أَعْجَبُ مَا أَعجَبُ لَه من شُؤونِكم أَنَّكُم تعلمتم كل شيءٍ إلّا شيئاً واحداً هو أَدنىٰ إِلىٰ مَدَارِكِكُمْ أَنْ تَعْلَموهُ قبل كل شيءٍ، وهو أَنَّ لِكُلِّ تُرْبَةٍ نَباتاً يَنْبُتُ فيها، وَلكل نباتٍ زَمَناً ينمو فيهِ.

رأَيتم العلماء في أُوروبا يشتغلون بِكَمَالِيَّاتِ العُلومِ بَيْنَ أُمَمٍ قد فَرَغَتْ مِنْ ضَروريِاتِها، فاشتغلتم بِها مِثْلَهم في أُمَّةٍ لا يزالُ سَوَادُها الأَعْظَمُ في حاجةٍ إِلى مَعْرِفةِ حُروفِ الهِجَاءِ.

وَرَأَيتم الفلاسفة فيها يَنْشُرونَ فلسفة الكفرِ بينَ

شُعوبٍ ملحدةٍ، لها مِنْ عُقولِها وآدابِها ما قد يُغْنيها بَعْضَ الغَنَاء عن إيمانِها[1]، فَاشْتَغَلْتُم بِنَشْرِها بين أُمَّةٍ ضَعيفةٍ ساذَجةٍ لا يُغْنيها عن إيمانِها شَيْءٌ.

ورأَيتم الرجلَ الأُوروبيَّ حُرّاً مُطْلَقاً يفعلُ ما يَشاءُ وَيَعِيشُ كما يُرِيدُ لأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ وخُطُواتِهِ في الساعةِ الّتي يَعْلَمُ فيها أَنَّه قَدْ وَصَلَ إلى حُدود الحُرِّيَة التي رَسَمَها لِنَفْسِهِ فلا يَتَخَطَّاهَا، فَأَرَدْتُمْ أَنْ تَمْنَحُوا هذه الحُرِّيَّة نَفْسَهَا رَجُلاً ضعيفَ الإرادةِ والعزيمةِ، يَعيشُ من حياتِه الأدبيّةِ على رَأْسِ مُنْحَدَرٍ زَلِقٍ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ مَرَّةً انْحَدَرَ مِنْ حيث لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَمْسِكَ حتى يبلغ الهُوَّةَ وَيَتَرَدَّىٰ في قَرارَاتِها.

ورَأَيتم الزوجَ الأُوروبيَّ الّذي أطفأت البيئة غيرته وَأَزَالَتْ خُشونَةَ نَفْسِهِ وخُرْشَتِها يَسْتَطِيعُ أَنْ يرىٰ

---

(١) زعموا!!!

زَوْجَتَهُ تُخَاصِرُ مَنْ تَشاءُ من الرِّجالِ، وتُرافِقُ مَنْ تَشاءُ، وتَخْلو بِمَنْ تَشَاءُ، فيقف أمام ذلك الْمَشْهَدِ موقفَ الجامدِ الْمُتَبَلِّدِ، فَأَرَدْتُم مِنَ الرجلِ الشَّرْقِيِّ الْغَيورِ الْمُتَلَهِّب أَنْ يقف مَوْقِفَهُ، وَيَسْتَمْسِكَ اسْتِمْسَاكَهُ!.

ورأيتم المَرأَةَ الأُوروبيّةَ الجريئة الْمُتَفَتِّيَةَ تَسْتَطِيعُ في بَعْضِ مَوَاقِفِها بينَ الرِّجالِ أنْ تحتفِظَ بِعِصْمَتِها! فَأَرَدْتُمْ مِنَ المَرْأَةِ المصرية الضَّعيفةِ السَّاذَجِهِ أنْ تَبْرُزَ للرِّجالِ بروزَها، وَتَحْتَفِظَ بِنَفْسِها احْتِفَاظَها!.

وكُلُّ نَباتٍ يُزْرَعُ في أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِهِ، أَوْ ساعَةٍ غَيْرِ ساعَتِهِ، إِمّا أَنْ تَأْبَاهُ الأَرْضُ فَتَلْفِظَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَنْشَبَ فِيهَا فَيُفْسِدَها.

إِنَّا نَضْرَعُ إِلَيْكُمْ باسْمِ [خَالق الأَرْضِ والسَّماءِ وَنُذَكِّرُكُمْ][1] بِالشَّرَفِ الوَطَني وَالْحُرْمَةِ

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة لا بدّ منها في السياق: (من =

الدينيّةِ أَنْ تَتْرُكوا تلك البقيَّـةَ الباقيَـةَ مِنْ نِسَاءِ الأُمَّـةِ آمِنـاتٍ مُـطْمَئِنَّــاتٍ في بُيُـوتِهِنَّ، ولا تُــزْعِجـوهُنَّ بِأَحْلامِكُم وَآمالِكُمْ كَما أَزعجتم مَنْ قَبْلَهُنَّ.

فكل جرحٍ من جروحِ الأُمَّةِ له دَوَاءٌ إِلَّا جُرْحَ الشَّـرفِ، فَـلا دَواءَ لَــه، فـإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَفْعَلوا! فَـانْتَـظِرُوا بِـأَنْفُسِكُمْ قليـلاً رَيْثَمـا تَنْتَـزِعُ الأَيّـامُ مِنْ صُـدورِكم هٰذهِ الْغَيْـرَةَ الّتي وَرِثْتُمُـوهَـا عَنْ آبـائِكُمْ وَأَجْدادِكُمْ لِتَسْتَطِيعوا أَنْ تَعِيشُوا في حَيَاتِكُمُ الجدِيدةِ سُعْداءَ آمِنينَ.

فَمَــا زَادَ الْفَتىٰ عَـلَى أنِ ابْتَـسَم فـي وَجْهـي ابْتِسـامَةَ الهُـزْءِ والسُّخْرِيـةِ، وقال: تلكَ حَمـاقـاتٌ ما جئنا إِلَّا لِمُعَالَجَتِها، فَلْنَصْطَبِرْ عَلَيهـا حَتّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَنا وَبَيْنَها.

= زيادات نسخة الأستاذ علي حسن عبد الحميد ــ جزاه الله خيراً ــ).

فَقُلْتُ له: لَكَ أَمْـرُكَ في نَفْسِكَ وفي أَهْلِكَ، فاصْنَعْ بِهِمَـا ما تَشـاءُ وَائْذَنَ لي أَنْ أَقُـولَ لَكَ: إِنّي لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْتَلِفَ إِلَيْكَ[1] بعدَ اليوم إِبْقاءً عَلَيْكَ وَعَلَىٰ نَفْسِي لأَنّي أَعلم أَنَّ السـاعةَ الّتي ينفـرجُ لي فيها جانبُ سَتْرٍ مِنْ أَسْتَارِ بيتِـكَ عَنْ وَجْهِ امـرأةٍ من أَهلِكَ تَقْتُلُني حَياءً وَخَجَلاً.

ثم انصـرفـت وكـان هٰذا آخِـرَ مـا بيـني وبينه.

ومـا هي إلاَّ أيامٌ قـلائلُ حتى سمعتُ النّـاسَ يتحدثونَ أَنَّ فُلاناً هَتَـكَ السِّتْرَ في مَنْـزلهِ بينَ نِسَـائِهِ وَأَصْدِقائِهِ، وَأَنَّ بَيْتَه قَدْ أَصْبَحَ مَغْشِياً لا تَزالُ النِّعـالُ خافِقةً ببَابِهِ.

فَـذَرَفَتْ عَيْني دَمْعَةً لا أعْلَمُ: هَـلْ هِيَ دَمْعَةُ

---

(١) أي آتيك مَرة بعد مَرة.

الغَيْـرَةِ على العِرْضِ المُـذالِ، أَو الحُـزْنِ على الصديقِ المَفْقُود؟!!.

مَرَّتْ على تلكَ الحادثةِ ثَلاثةُ أَعْوامٍ لا أَزورُهُ فيها ولا يَزُورُني، وَلَا أَلْقاهُ في طريقهِ إلَّا قَليلاً فَأُحَيِّيهِ تَحِيَّةَ الْغَرِيبِ لِلْغَـرِيبِ مِنْ حَيْثُ لا يَجْرِي لِمَـا كان بَيْنَنَا ذِكْرٌ ثُمَّ أَنْطَلِقُ في سَبيلي.

فإنّي لَعَائِدٌ إلى منزلي ليلةَ أَمْسٍ، وَقَدْ مضىٰ الشَّـطْرُ الأَوَّلُ من الليلِ إذْ رَأَيْتُـهُ خارِجـاً مِنْ مَنْزِلِـهِ يَمْشي مَشْيَةَ المُضْطَرِبِ الحائِرِ، وَبِجانِبِهِ جُنْدِيٌّ مِنْ جُنودِ الشُّرْطَةِ، كَأَنّما هو يَحْرُسُهُ أَوْ يَقْتَـادُهُ، فَأَهَمَّني أَمْرُهُ، وَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ شأنِهِ؟.

فقـال: لا عِلْمَ لي بِشَـيْءٍ سِـوى أنَّ هـذا الجُنْدِيَّ قد طَرَقَ السَّاعةَ بَابِـي يَـدْعوني إلىٰ مَخْفَـرِ الشُّرَطةِ، وَلا أَعْلَمُ لِمثْلِ هٰذهِ الدَّعْوَةِ في مِثْـلِ هٰذهِ السَّاعَةِ سَبَباً، وَمَا أَنَا بالرَّجُلِ المُذْنِبِ وَلا المُريبِ، فَهَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَرْجُوكَ ـ يا صَديقي الْقَـديمُ ـ بَعْدَ

الّذِي كان بَيْني وَبَيْنَكَ أَنْ تَصْحَبَني اللَّيْلَةَ في وَجْهي هٰذا، عَلَّني أَحْتَاجُ إِلى مَعونَتِكَ فيما قد يَعْـرِضُ لِي هُناكَ مِنَ الشُّؤونِ؟.

قُلْتُ: لا أَحَبَّ إِلَيَّ مِن ذٰلك؟.

وَمَشَيْتُ مَعَه صامِتـاً لا أُحَدِّثُـهُ، ولا يقُولُ لي شَيْئاً، حتَّى شَعَرْتُ كَأَنَّهُ يُزَوِّرُ[1] في نَفْسهِ كَلاَماً يُريدُ أَنْ يُفْضيَ بِهِ إِلَيَّ فَيَمْنَعَهُ الخَجَلُ والْحَيَاءُ، فَفـاتَحْتُهُ الحَديثَ وقلتُ له:

أَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تتذَكَّرَ لِهٰذهِ الدَّعوةِ سبباً؟.

فنـظر إِلَيَّ نـظرةً حـائـرةً وقَـال: إِنَّ أَخْـوَفَ ما أَخافُهُ أَنْ يَكُونَ قـد حدث لِـزَوْجَتِي الليلةَ حادِثٌ مُؤْلِمٌ، فَقَدْ رَابَني مِنْ أَمْرِها أَنها لم تَعُدْ إلى مَنْـزِلِها حتى الساعةَ، وما كان ذٰلك شَأْنَها مِنْ قَبْلُ!.

قُلْتُ: أَمَا كانَ يَصْحَبُها أَحَدٌ؟.

---

(١) زَوّر الكلام في نفسه: هَيَّأه.

قال: لا.

قُلْتُ: أَلَا تَعْلَمُ المكانَ الّذي ذهبت إِلَيه؟.

قال: لا.

قُلْتُ: وَمِمَّ تَخافُ عليها؟.

قالَ: لا أَخافُ شَيْئاً سِوىٰ أَنّي أَعْلَمُ أَنّها امرأةٌ غَيورٌ حَمْقاءُ، فلعلَّ بعض النَّاس حَاوَل الْعَبَثَ بِهَا في طَريقِها فَشَرِسَتْ عَلَيْهِ فَوَقَعَتْ بينَهما وَاقِعةٌ انتهى حَديثُها إلى رِجَال الشُّرَطةِ.

وَكُنّا قد وصلنا إلى المَخفَرِ، فَاقْتادَنا الجُنْدِيُّ إلى قاعةِ المَأْمُورِ، حتى صِرْنا بينَ يديهِ، فأشار إِلى جُنْدِيٍّ أَمامَه إِشارةً لَمْ نفهمها، ثُمّ اسْتَدنى الفَتى إِلَيْهِ، وقال له: يَسوؤني يا سَيّدي أَنْ أَقولَ لك: إِنَّ رِجالَ الشُّرْطةِ قَدْ عَثروا الليلة في مكانٍ مِنْ أَمْكِنَةِ الرِّيبَةِ على رجلٍ وامرأةٍ في حالٍ غَيْرِ صَالِحَةٍ فاقْتَادُوهُما إِلى المَخْفَرِ، فَزَعَمَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ لَهَا بِكَ

صِلَةً، فَدَعَوْنَاكَ لِتَكْشِفَ لنا الْحَقِيقَةَ في أَمْرِها، وَأَمْرِ صاحِبِها، فَإِنْ كانَتْ صَادِقَةً أَذِنَّا لها بالانْصِرَافِ مَعَكَ: إكْراماً لَكَ، وَإِبْقَاءً على شَرَفِك، وإلَّا فَهِيَ امْرَأَةٌ فاجِرَةٌ لا نَجاةَ لَهَا مِن عقاب الفاجِرَاتِ، وهَا هُما وَراءَك فانْظُرْهُما.

وكانَ الجُنْدِيُّ قد جاءَ بِهِما مِنْ غُرْفَةٍ أُخْرىٰ، فَنَظَرَ، فإذَا المرأةُ زَوْجَتُهُ، وإذَا الرَّجُلُ أَحَدُ أَصْدقائِهِ.

فصرخَ صرخةً رَجَفَتْ لها جَوَانِبُ الْمَخْفَرِ وَمَلأَتْ نَوَافِذَهُ وَأَبْوَابَهُ عُيوناً وآذاناً، ثُمَّ سَقَطَ فِي مكانِه مَغْشِيّاً عَلَيهِ.

فَأَشَرْتُ على المَأْمُورِ أَنْ يُرْسِلَ الْمَرْأَةَ إِلَىٰ مَنْزلِ أَبيها، فَفَعَل، وَأَطْلَقَ سَبِيلَ صَاحِبِها، ثُمَّ حملنا الفتىٰ في مَرْكَبةٍ إلى مَنْزِله، وَدَعَوْنا الطَّبيبَ، فَقَرَّرَ أَنهُ مُصابٌ بِحُمّىٰ دِماغيّةٍ شديدةٍ، ولَبِثَ سَاهِراً

بجانبِهِ بقيّةَ الليلِ يُعالجُهُ، حَتّى دَنَا الصُّبْحُ، فانْصَرفَ على أَنْ يَعُودَ مَتى دَعَوْنَاه، وعَهِدَ إِليَّ بِأَمْرِهِ، فَلَبِثْتُ بِجَانِبِهِ أَرْثِي لحالِهِ، وَأَنْتَظِرُ قَضاءَ اللَّهِ فيهِ، حتّى رأيتُهُ يتحركُ في مَضْجَعِهِ، ثُمّ فتحَ عَيْنَيْهِ، فَرآني، فَلَبِثَ شاخِصاً إِلَيَّ هُنَيْهَةً كَأَنَّمَا يحاولُ أَنْ يَقُولَ لي شَيْئاً، فلا يَسْتطيعُه، فَدَنَوْتُ مِنْه، وقُلتُ:

هَلْ من حاجةٍ يا سيّدي؟.

فأَجابَ بصوتٍ ضعيفٍ خافِتٍ: حاجَتي أَنْ لا يَدْخُلَ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ.

قُلْتُ: لن يَدْخُلَ عليك إلاّ مَنْ تُريدُ.

فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فإِذَا عَيْناه مُبْتَلَّتَانِ بالدُّموع.

فقلتُ: ما بُكاؤُكَ يا سيّدي؟.

قَالَ: أَتَعْلَمُ أَين زوجتي الآن؟.

قُلْتُ: ومَاذَا تُريدُ منها؟.

قال: لا شيءَ سِوَى أَنْ أَقولَ لها: إِنّي عَفَوْتُ عنها.

قلت: إنّها في بَيْتِ أَبيها.

قال: وَارَحْمَتاه لها، وَلأَبيها، وَلِجَميعِ قَوْمِها، فَلَقَدْ كانوا قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلُوا بي شُرَفاءَ أَمْجاداً، فَأَلْبَسْتُهُمْ مُذْ عَرَفوني ثَوْباً مِنَ الْعارِ لا تَبْلُوهُ الأَيّامُ.

مَنْ لي بِمَنْ يُبَلِّغُهُمْ عَنّي جَميعاً أَنّي رَجُلٌ مَريضٌ مُشْرِف[1]، وَأَنّني أَخْشَى لِقاءَ اللَّهِ إِنْ لَقيتُهُ بِدِمائِهِمْ، وَأَنّني أَضْرَعُ إِليهِم أَنْ يَصْفَحوا عَنّي، وَيَغْتَفِروا ذَنْبي، قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ إِلَيَّ أَجَلي.

لقد كنتُ أَقسَمْتُ لأَبيها يَوْمَ اهْتَدَيْتُها[2]، أَنْ أَصُونَ عِرْضَها صِيانَتي لِحَياتي، وَأَنْ أَمْنَعَها مِمَّا أَمْنَعُ

---

(١) أي على الهلاك.

(٢) اهتدى الرجلُ امرأته جمعها إليه وضمّها.

منه نفسي، فَحَنِثْتُ في يَميني فَهَلْ يَغْفِرُ لي ذَنْبِي فَيغْفِرَ لِيَ اللَّهُ بِغُفْرانِهِ؟!.

إِنّها قتلتني، وَلٰكنّي أَنَا الّذي وضعتُ في يَدِها الخِنْجَرَ الّذي أَغْمَدَتْهُ في صَدْري، فَلاَ يَسْأَلْها أَحَدٌ عن ذَنْبي!.

البيتُ بَيْتي، والزَّوْجَةُ زَوْجَتِي، والصَّديقُ صَدِيقي، وأَنَا الّذي فتحتُ باب بيتي لِصَديقي إلى زَوْجَتي، فَلَم يُذْنِبْ إِلَيَّ أَحَدٌ سِوَايَ.

ثم أَمسكَ عن الكلامِ لحظةً، فنظرت إِلَيْهِ، فإِذا سَحَابةٌ سوداء تَنْتَشِرُ فَوْقَ جبينهِ شَيْئاً فَشَيْئاً، حتى لَبِسَتْ وَجْهَهُ، فَزَفَرَ زَفْرةً خِلْتُ أَنَّها خرقتْ حِجَابَ قَلْبِهِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقولُ:

آهٍ ما أَشَدَّ الظَلامَ أَمَامَ عَيْنَيَّ، وما أَضيقَ الدُّنيا في وَجْهي، في هٰذهِ الغُرْفَةِ، على هٰذا المَقْعدِ، تحتَ هذا السَّقْفِ، كنتُ أَراهُما جَالِسَيْنِ يَتَحَدَّثانِ،

فَتَمْتَلىءُ نَفْسي غِبْطَةً وَسُروراً، وَأَحْمَدُ اللَّهَ على أَنْ رَزَقَني بِصَديقٍ وَفِيٍّ يُؤْنِسُ زَوْجَتي في وَحْدَتِها، وزوجةٍ سَمْحةٍ كريمةٍ تُكْرِمُ صَديقي في غَيْبَتي، فقولوا للنّاسِ جميعاً: إِنَّ ذَلِكَ الرجُلَ الّذي كان يفخرُ بالأَمْسِ بذَكائِهِ وفِطْنَتِهِ ويَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْيَسُ النَّاسِ وَأَحْزَمُهُمْ، قَدْ أَصْبَحَ يعترفُ اليَوْمَ أَنّه أَبْلَهُ إلى الغايةِ من البلاهةِ، وغَبِيٌّ إلى الغايةِ التي لا غايةَ وَراءَها!.

وَالهَفَاً على أُمٍّ لَمْ تَلِدْني، وَأَبٍ عَاقرٍ لَا نَصيبَ له في البَنِين[1]!.

لَعَلّ الناسَ كانوا يعلمونَ مِنْ أَمْرِي ما كُنْتُ أَجْهَلُ، ولعلهم كانوا إذا مَرَرْتُ بِهِم يَتَنَاظَرون وَيَتَغَامَزونَ، وَيَبْتَسِمُ بَعْضُهم إلى بعضٍ أو يُحَدِّقونَ إلَيَّ وَيُطيلونَ النَّظَرَ في وَجْهي لِيَرَوا كيفَ تَتَمَثَّلُ البَلاهةُ في وُجوهِ البُلْهِ، والغَبَاوَةُ في وُجوهِ الأَغْبِيَاءِ.

---

(١) يريد: ليتني لم أولد.

ولعلَّ الّذين كانوا يُطِيفُون بـي ، وَيَتودَّدُونَ إِلَيَّ مِن أَصْدقائِي إِنَّما كانُوا يَفْعلونَ ذٰلك مِنْ أَجْلِها لا مِنْ أَجْلي ، ولَعَلَّهم كـانُـوا يُسَمُّـونَنـي فيمـا بَيْنَهم وبينَ أَنْفُسِهم قَـوَّاداً ، ويُسَمُّـون زَوْجَتِيَ مُـومِسـاً ، وَبَيْتِي مَاخُوراً(١) .

فَوَارَحْمَتاه لي إِنْ بَقِيتُ على ظَهْرِ الأَرْضِ بَعْدَ اليومِ ساعةً وَاحِدةً ، وَوَالَهفاً على زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايا قَبْرٍ عَميقٍ يَطْوِيني ويَطْوِي عَارِيَ مَعِي .

ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وعَادَ إِلى ذُهولِهِ وَاسْتِغْراقِهِ .

وهُنـا : دَخلتِ الحجرةَ مُـرْضِـعُ وَلَـدِهِ تحملُهُ على يَـدِهَـا ، حتّى دَنَتْ بـهِ مِنْ فِـرَاشِـهِ ، فَتَـرَكَتْـهُ وَانْصَرَفَتْ .

فَمَا زَالَ الطِّفْلُ يَدُبُّ على يَدَيْهِ حَتّى عَلا صَدْرَ أَبِيهِ ، فَأَحَسَّ بِهِ ففتحَ عَيْنَيْـهِ ، فَرَآهُ ، فَـابْتَسَمَ لِمَرْآهُ ،

---

(٢) الماخور : بيت الريبة .

وَضَمَّهُ إِلَيْهِ ضَمَّةَ الرِّفْقِ وَالْحَنَانِ، وَأَدْنى فَمَهُ مِن وَجْهِهِ كَأَنَّما يُرِيدُ أَنْ يُقَبِّلَهُ، ثُمَّ انْتَفَضَ فَجْأَةً، واسْتَسَرَّ[1] بِشْرُهُ[2]، وَدَفَعَهُ عنه بِيَدِهِ دَفعاً شَدِيداً فَانْكَفَأَ على وَجْهِهِ يَبْكي ويصيح. وقال: أَبْعِدُوهُ عَنِّي، لا أَعْرِفُهُ، لَيْس لي أولادٌ ولا نِسَاءٌ، سَلُوا أُمَّهُ عَنْ أبيهِ! أَيْنَ مكانُه؟ واذْهَبوا بِهِ إليهِ، **لا أَلْبَسُ العارَ في حَيَاتي وَأَتْرُكُهُ أَثَراً خالِداً وَرَائي بَعْدَ مَماتي.**

وَكَانَتِ المرضعُ قَدْ سَمِعَتْ صِيَاحَ الطفلِ فَعَادَتْ إليهِ وحملتهُ وذهبت به.

فَسَمِعَ صَوْتَهُ وَهُوَ يَبْتَعِدُ عَنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً، فَأَنْصَتَ إِلَيْهِ واسْتَعْبَرَ بَاكِيَاً، وَصَاحَ:

أرجعوه إِلَيَّ.

فَعادَتْ بِهِ المرضعُ، فتناوله من يَدها وَأَنْشَأَ

---

(١) اختفى وغاب.

(٢) فرحه وسروره.

يُقلِّبُ نَظَرَهُ في وَجْهِهِ ويقولُ:

في سبيلِ اللَّهِ يا بُنَيَّ ما خَلَّفَ لك أَبُوكَ مِنَ اليُتْمِ، وَما خَلَّفَتْ لك أُمُّكَ مِنَ العارِ، فاغْفِرْ لَهُما ذَنْبَهُما إِلَيْكَ، فلقد كانت أُمُّكَ امرأَةً ضعيفةً فَعَجَزَتْ عَنِ احْتِمالِ صدمةِ القضاءِ فَسقَطَتْ، وكان أَبُوكَ حَسَنَ النِّيَّة فِي جَريمتهِ الَّتي اجْتَرَمَها، فَأَسَاءَ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ الإِحْسَانَ.

سَوَاءٌ أَكُنْتَ وَلَدي يا بُنَيّ أَوْ ولد الجريمةِ، فَإِنِّي قد سَعِدْتُ بِكَ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْر، فَلاَ أَنْسَى يَدَكَ عِنْدي حَيّاً أو ميتاً!.

ثُمَّ احتضنهُ إِلَيْهِ وقبَّلهُ في جبينه قُبلة، لا أَعلمُ: هَلْ هِيَ قُبْلَةُ الأَبِ الرَّحيمِ، أَوِ الرَّجُلِ الكَريمِ!.

وكان قد بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدُ، فَعَاوَدَتْهُ الْحُمَّى، وَغَلَتْ نَارُهَا في رَأْسِهِ، وما زالَ يثقلُ شيئاً فشيئاً حتى

خِفْتُ عليه التلفَ، فَأَرسلتُ وَرَاءَ الطَّبيبِ، فجاءَ وَأَلْقَىٰ عَلَيْهِ نَظْرةً طويلةً، ثُمَّ اسْتَرَدَّها مَمْلوءَةً يَأْساً وَحُزْناً.

ثم بدأ يَنْزِعُ نَزْعاً شَدِيداً وَيئِنُّ أَنيناً مُؤلِماً، فَلَمْ تَبْقَ عَيْنٌ مِنَ العيونِ المحيطةِ به إلَّا ارْفَضَّتْ عن كُلِّ ما تستطيعُ أَنْ تَجُودَ بِهِ مِنْ مَدَامِعِها.

فَإِنَّا لَجُلُوسٌ حَوْلَهُ، وقد بَدَأَ الْمَوتُ يُسْبِلُ أَسْتَارَهُ السَّوْدَاءَ حَوْلَ سَرِيرِه، وَإِذَا بِامرأةٍ مُتَّزِرَةٍ بِإِزَارٍ أَسْوَدَ قد دخلتِ الحجرةَ وتقدمت نحوه بِبُطْءٍ حتى رَكَعَتْ بِجَانِبِهِ، ثُمَّ أَكَبَّتْ على يده الممتدة فوقَ صدره فَقَبَّلَتْها، وأَخذت تقول له:

لا تَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيا وأَنت مُرْتابٌ فِي وَلَدِكَ، فَإِنَّ أُمَّهُ تَعْتَرِفُ بين يَدَيْكَ، وأَنت ذاهبٌ إِلى رَبِّكَ تَسْأَلُهُ عَنْ قَوْلِها أَنَّها وَإِنْ كَانَتْ دَنَتْ مِنَ الْجَرِيمَةِ فَإِنَّها لَمْ تَرْتَكِبْها، فَاعْفُ عَنِّي يا وَالِدَ وَلَدِي، وَاسْأَلِ

اللَّهَ عِنْدَما تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ أنَ يُلحِقني بِكَ فَلاَ خَيْرَ لي في الحياة من بَعْدِكَ . .

ثم انْفَجَرَتْ باكِيَةً، ففتح عَيْنَيْـهِ، وَأَلْقَىٰ عَلَى وَجْهِهَا نَظْرَةً باسِمَةً كـانَتْ هِيَ آخِرَ عَهْـدِهِ بالحيـاة، وقَضَىٰ.

* * *

الآنَ عُدْتُ مِنَ المَقبرةِ بعدَما دَفَنْتُ صَدِيقي بِيَدي، وَأَودَعْتُ حُفْرَةَ القَبْرِ ذَلِك الشبـابَ النَّاضِـرَ، والرَّوْضَ الزَّاهِرَ.

وجلستُ لِكِتَـابَةِ هٰـذهِ السُّطورِ، وأَنـا لا أَكَـادُ أَمْلِكُ مَدَامِعي وَزَفَرَاتي، فلا يُهَوِّنُ وَجْـدي عليهِ إلَّا أَنَّ الأُمَّةَ كانت على بابِ خَطَرٍ مِنْ أَخْطارِها فتَقَدَّم هو أَمـامَها إلى ذٰلـكَ الخَطَرِ وَحْـدَه، فَاقْتَحَمَـهُ، فمات شهيداً بَيْنَ يَديْها، فَنَجَتْ بِهَلاكهِ.

[تَـمَّـتْ]